

نابليون وسخرية الأقدار

للقاص الروسي البارع إسكندر كوبرن أقصوصة عنوانها « إغراء » ، مضمونها أن مهندساً في ريعان الشباب قوى البنية ، رضى الأخلاق ، كريم الطباع ، كان عائداً في قطار الشرق الأقصى قاصداً مدينة بتروغراد بعد أن قضى في الشرق خمس سنوات ، بعيداً عن أسرته ، جمع في غضونهما ثروة طائلة ، وكان يبدو موفور السعادة طافح البشر ، وكان يستطيل الوقت ويكاد يستحث سرعة القطار ، ولا يني يتحدث عن شدة شوقه إلى رؤية أفراد أسرته ، وحرصه على لقائهم ، وكان في كل محطة يرسل برقية إلى أسرته ويتلقى منها برقية ، ولما طوى القطار تلك المسافة الشاسعة وبلغ العاصمة الزاهرة اشتد شوقه ، وعظم تأثره ، واصفار وجهه ، واضطربت أعصابه ، وفقد اتزانه ، فسقط من جراء ذلك تحت عجلات القطار . والفكرة التي حاول توضيحها مؤلف الأقصوصة هي أن الرجل لشدة حرصه ، وفرط حماسه لرؤية أسرته بعد الغياب الطويل والسفر البعيد ، أغرى الأقدار بما كسسته ، وحرصها على أن تتحداه ، وقد بدأ كوبرن هذه القصة العجيبة المحزنة بهذه المحاورة التي تلائمها في الغرابة والخفاء

(لقد اعتدت أن تردد في مناسبات كثيرة قولك « إنها المصادفة »
ولكن الأمر الجوهرى الذى أود أن أسترعى التفاتك إليه هو أن المسألة
أخطر مما تظن وأكثر تعقيداً .

واسمح لى أن أقول إني قد وقفت على الستين ، وهى تلك المرحلة من
مراحل العمر التى يرى الإنسان فيها أمامه بعد الأهواء المضلة ، والصراع
الطويل ، ثلاث طرق ، وهى طريق الطمع وطريق الطموح وطريق الفلسفة ،
ويمكن أن أقول إنهما طريقان ، لأن الطموح ضرب من الطمع .

ولست أستطيع أن أسمى نفسى فيلسوفاً فإن ذلك عبء ثقيل لا أقوى
على حمله ، وثوب فضفاض لا يلائمنى ، وفضلاً عن ذلك فإن فى وسعك أن
تجهننى بقولك « أنثر على كنانتك وأرنى إجازتك » ، ولكنى برغم ذلك
قد عشت حياة متنوعة حافلة ، وبلوت النعماء والبأساء ، وتمرست بأهوال
الفقر والمرض والحرب ، وراعى فقد أقرب الناس إلى وآثرهم عندى ،
وعانيت مرارة الأسر والسجن ، ولواعج الحب ومضض العار ، وبرد اليقين
والم الجحود .

وسواء أصدقتنى أم لم تصدقنى فإننى قد عرفت الناس . ولا تحسبن هذا
شيئاً غير عجيب ، إنه شىء جد عجيب ياسيدى ! ولكى تعرف أى إنسان ،
وتخلص إلى سريره ، يلزم أن تكون قادراً على نسيان شخصك ، وأن
تغفل عن محاسنك ومناقبك وجلالة خطرك ، وقليل من الناس من
يستطيعون ذلك .

والآن وأنا في أيامي المدبرة ، أنا الفقير الأثيم أحاول أن أفكر في الحياة ، وأنا - كما تراني - شيخ على السن ، وحيد من الخلان ، ناء عن الأهل . وأنت تعرف طول ليالي العجائز ، ولكن ذاكرتي لا تزال تحتفظ بآلاف الذكريات . ومما يروقني أن أستعيد صور الماضي وسوائف الحوادث .

ولقد طاف بنا الحديث على مسألة « المصادفة » و « القضاء » وأنا مستعد أن أسلم معك بأن المصادفة حمقاء رعناء ، متقلبة الأطوار عمياء ، تخبط خبط العشواء . ولكن هناك قانوناً صامتاً يسيطر على الحياة ، ويقضى بأن كل شيء يولد ويتجدد ، ثم ينمو ويزدهر ، ويوفى على الكمال ويبلغ الذروة ، ثم يتراجع وينكص وتتقلص ظلاله ، وتصح زهرته ، ثم يصيبه العفاء والدثور ثم يعيد ثانية سيرته ، ويبعث من جديد ، وهكذا دواليك مثل التعرج اللولبي .

وستحاول أن تقول إن مثل هذا القانون لو كان موجوداً لكانت الناس قد استكشفتة من زمن طويل ، ولاستطاع البشر قراءة المستقبل ، ومطالعة الغيوب ، ولكن الأمر ليس كذلك ، لأننا نحن الأناس مثل النساجين الذين يجلسون متقاربين إزاء سداة طويلة الامتداد تمر أمامهم الألوان المختلفة من أصفر فاقع ، أو أحمر قان ، أو أزرق داكن ، ولكنهم لا يستطيعون تمييز النموذج لقربه منهم ، والحياة لا تتكشف أسرارها ، وتنجلي غوامضها ، إلا للذين استطاعوا أن يقفوا بعيداً عنها مثل عباقرة العلماء ، وصفوة الأنبياء والشعراء ، والمتعصبين لأفكارهم . وإني على أتم

استعداد لقبول أحكام تلك القوانين المسيطرة على كل شيء ، ولكنى الملح
قوة أخرى لا أعرف كيف أعبر عنها ، ولا كيف أسميها ، ولكنها
لو تجسمت فى شخص اظهر الشيطان إلى جانبه ساخرًا حين الشأن
جديرًا بالمرثية له .

تصور قوة مسيطرة على الكون تكاد تعادل قوة الله ، وإلى جانبها قوة
أخرى عاتية لاهية ، تتجاهل الخير والشر ، وهى مع ذلك قاسية لا ترحم ،
ولكنها حادة الذكاء عادلة ، وربما استغلق عليك فهم حديثى فلأضرب لك
مثلا حياة نابليون ، فهى حياة تشبه الخرافة ، وشخصية عظيمة مفرطة فى
العظمة ، وقوة متبادية ، لا ينضب معينها ، ولا ينقطع مداها ، ولكن انظر
إلى خاتمة ذلك كله ! جزيرة صخرية صغيرة ، وألم مبرح فى المئات ، وتذمر
كتذمر العجائز . ولا شك عندى فى أن هذه الخاتمة التعسة كانت من
سخرية تلك القوة الغريبة التى أشرت إليها ، وقد فطن القدماء لهذه القوة
المجهولة ، وكانوا يخشونها ، ويحذرون جانبها ، وكانوا يسمون بسماتها
الساخرة " غيرة الأقدار " .

فى ضوء هذه الأفكار التى يختلط فيها الوضوح بالغموض ، ويلتقى فيها
الظل والضوء أريد أن أنظر إلى سمة ظاهرة فى حياة نابليون ، وهى تصويره
للقضاء فى أواخر أيامه وهو منفى فى جزيرة القديسة هيلانة .

كان نابليون فى صباه ومطالع حياته ، نابليون القائد ونابليون القنصل ،
لا يرى فى كلمة « القضاء » معنى غامضًا ، ولا لغزًا غريبًا ، لأنه كان عقلى

النزعة ، مادی الفلسفة ، وكان فوق ذلك كله واقعياً لا يغره بريق الأحلام ، ولا يجرى وراء الخيال . وكان يحلل كل موقف تحليلًا دقيقاً ، ويزنه وزنًا فاحصاً ، وكان يثق بنفسه ، ويعتمد على إرادته القوية ، وعزمه الصارم ، ويعتقد أن الموقف الفاصل في حياة الإنسان هو معرفته مدى مواهبه ، وطبيعة ملكاته ، واستثمار تلك المعرفة جهد الطاقة ، ومتى اطمأن إلى ذلك فسرعان ما تبدد الشكوك ، ويزول التردد ، وينطلق في طريقه قدماً وهو عليم بغايته ، عارف بوسائله ، يحدوه الإيمان بنفسه ، والثقة بقدرته .

وكان يعتقد أنه يستطيع أن يقدر وجوه الحركة القادمة ، وشتى محتملاتها في دقة حسابية قل أن يتطرق إليها الخطأ ، وبذلك لا يترك مجالاً للمصادفة ولا نصيباً للحظ ، وأصحاب المدارك المتوسطة أو العقول العادية هم الذين يعتقدون بالمصادفة ، ويرونها لغزاً غريباً ، وسراً غامضاً . أما هو ذو البصر الحديد ، والرأى الصائب ، والممحات الحافظة فلا غرابة أمامه ولا غموض ولا أسرار !

والحظ والقدر في رأى نابليون القائد المنتصر الموفق حقائق ميسور تحديدها ، وعلم النجاح أساسه أن تزن في دقة وانتباه محتملات النجاح ومحتملات الفشل في أية مسألة من المسائل ، ولكن كلما عظمت عبقرية الإنسان ، وسمت ملكاته كان الجزء المتروك للحظ في حياته جد صغير وقد كان نابليون مغامراً جريئاً ، وهو لا يخفى ذلك بل يصارحنا به ، ولكنه

كان يلعب لعبة علمية في عناية تامة ، وبراعة تستدعى الإعجاب ، وكان يزيده جرأة وثقة بالنفس إمامه بأصول تلك اللعبة ، وتغلغله إلى دقائقها ، وكان يقول عن نفسه : « مقدرتى العظيمة قائمة على أنى أعرف أن الخط المستقيم أقرب من الخط المنحنى » وكانت تأهباته مقرونة على الدوام بالروية والتفكير ، وتقليب الأمور على جميع وجوهها ، وفحص نواحيها فحصاً تاماً ، ووزنها وزناً دقيقاً ، والإحاطة بكل تفاصيلها وصغائرهما ، ولاعتقاده أن حظه في يده ، وطوع أمره ، كانت ثقته في نتيجة اللعبة لا تتزعزع ، وكان يزيده هذه الثقة قوة وتمكيناً غلبة عقله على جسمه ، واستطاعته أن يحتمل العمل المرهق في جلد وصبر دون أن يدركه إعياء أو تخذه صحته .

ولكن مر السنين ، وطول التجربة ، وتوالى الحوادث ، جعلته ينحرف عن تفسير المصادفة هذا التفسير الهين ، وعن تحليل القدر تحليلاً واضحاً بسيطاً سطحياً ، وصار القدر في نظره رويداً رويداً شيئاً غير ملموس ، وبدأ يأخذ صورة القوى الغامضة الخفية التي يرى نفسه إزاءها مسلوب القوة ، منهوب الإرادة ، وصار يدرك أنه مدفوع ومجبر ومسوق .

وأخذت نفسه تمتلئ بهذه القدرية اليأسية العميقة ، وتباعدت في تفكيره فكرة القدر عن فكرة النجاح ، وأخذ يعتقد أن الحظ بدأ يخونه ، وأخذت ثقته بنفسه تضعف وصار يعزو ما يلحقه من الفشل إلى الظروف والحوادث .

وكان كلما مرث السنون ، وتكاثرت الأحداث ازداد شعوره بعثار

جده ، وأفول نجمه ، حتى جاءت معركة واترلو وقضت على نفوذه ، وكانت من المعارك التي لعب فيها الحظ دوراً ملحوظاً ، وكان يقول قبلها بقليل « هاتف داخلي ينبئني أن النتيجة سوف لا تكون سارة ، وإني أعزو فشلي إلى أفول نجمة حظي » وقد أذعن بعد ذلك للإنجليز ، وألقى إليهم مقادته ، وكان في وسعه أن يسلك مسلكاً آخر ، ولكنه آثر ذلك نزولاً على حكم الحظ ، واستسلاماً للأقدار ، ولاعتقاده أن العقبات التي كان في مستهل حياته يزيلها من طريقه في سهولة قد أصبحت في نظره عقبات كأداء لا سبيل إلى التغلب عليها ، وعادت إلى قاموسه كلمة « مستحيل » بعد طول إهمالها وحذفها !

كان يشعر في ذلك الوقت بأنه مقيد في أصفاد الظروف والأحوال ، أسير في سجن الزمن لا يستطيع الخلاص من أسرهِ ، ولا يقوى على صدع قيوده وتفكيك أغلاله ، وكان حينئذ يرى أنه إذا أراد القضاء أمراً فلا مرد لمشيئته ولا معقب لحكمه ، والجهد ضد الأقدار عبث لأن ما كتب قد كتب ولا بد من تفاعده ، وليس في طاقة جهودنا وإرادتنا أن نغير حرفاً واحداً من المكتوب في سفر الأقدار !

وكان يرى في وجوده بتلك الجزيرة الصخرية المشؤومة ، وفي الآلام التي يكابدها دلائل واضحة على أن القضاء لا يغالب ، وكيف لا ؟ ألم يعد القضاء له هذه الخاتمة لأن حياته بدأت لامعة متألقة ؟

ولكنه مع ذلك كان عندما يتناول تاريخ غيره من عظماء الرجال

وأبطال التاريخ يعلل فشلهم بما طرأ من التغير على حالتهم النفسية و بواعثهم الدخيلة ، ويأبى أن ينسب فشلهم إلى الظروف الخارجية ! فلماذا فشل قيصر وهانيبال والإسكندر ؟ وهل اللوم على الظروف والمصادفة ، أو كان حظهم هو سبب ذلك ؟ يجيب نابليون على ذلك بقوله « نجاح الرجال العظماء لا يتوقف على الظروف والمصادفة ، وإنما هو نتيجة التفكير والعبقرية » ورجال القدر في رأيه قد سيطروا على الحظ لأنهم عظماء ، ولأنهم كانوا يحسبون حساب كل خطوة ، ويسرون على بينة من أمرهم ، وقد أخذ الفشل يلاحقهم لما خانوا نفوسهم ، وفقدت عبقريتهم قوتها ، وضعف نظرم في عواقب الأمور ، واختلت موازينهم ، وكانت هزيمتهم الخارجية في الواقع نتيجة محتومة لانهايار صرح شخصيتهم الداخلية .

كان نابليون يفكر هذا التفكير في مصير غيره من الأبطال ، ويعلل فشلهم هذا التعليل ، ولكن كان يحجم عن تطبيق ذلك على سيرته ، ويأبى أن يواجه به نفسه لأنه لا يريد أن يعترف بهزيمته الداخلية ، وخيائته لنفسه ، وكأنا كانت كبرياؤه الباقية لا تطاوعه على الإفصاح عن ذلك ! وقد كان في صدر حياته يرى أن المصادفة مهيمنة على شؤون العالم ، وعلى الإنسان أن يخضعها ، ويتخذها وسيلة لتحقيق أغراضه ، وكان عالمه واضحاً ميسور الفهم لا يحيط به خفاء ، ولا تكتنفه أسرار ، وكان عقله المادى النزعة يحاول أن يفسر الدنيا في ضوء الحقائق العارية المكشوفة ويخضع مظاهرها للعقل .

ولكن على توالى الأيام أخذ يشعر بوجود قوة غامضة مسيطرة على حياة الناس لا يستطيع أن يدرك كنهها ، ولا أن يسبر غورها لأنها من وراء طاقة العقل . وأخذ يظهر له أن جميع الحوادث مترابطة متصلة الحلقات ، وأنها خاضعة ليد خفية تحركها . ولذا قال فى حديث له مع دوقه ويمار « صدقنى أن هناك عناية ترشدنا ، وما أنا إلا آلة فى يدها ! »

وهكذا أخذ يقرن فكرة « القدر » إلى فكرة « العناية » ، وأخذ ينمو فى نفسه شعور صوفى بهذه العناية التى بدأ يدرك وجودها ، ويستشف أثرها ، ولذا نشأت فى نفسه إلى جانب إدراكه المادى للحياة عناية بشؤون الدين ، واحترام للكتب المقدسة ، وكان يقول « إننا مادة ، وليس بعد الموت سوى الموت » ولكن كان فى نفس الوقت يدمن قراءة الإنجيل والكتاب المقدس .

وهذا الشعور بالقدرية الذى استولى عليه فى سنواته الأخيرة طبع أقواله وأعماله بطابع خاص ، وفى سنة ١٨١٣ كان يردد قوله « إن الحظ يعمل ضدى » وصار يعتقد أن سقوطه ضربة لازم ، وكان يرفض أن يعترف بالعوامل المختلفة التى أدت إلى فشله وسقوطه .

وقد قنع نابليون فى النهاية بحظه ، وارتضى المنفى فى الجزيرة النائية ، وكان يقول « لقد تركت فى الدنيا دويماً كافياً ، وقد علت سنى وأصبحت أريد الراحة » وكان يؤمل — وقد أضع كل شىء — أن يجد فى تلك

الجزيرة هدوء النفس وراحة الضمير ، وكان يرى ذلك ميسوراً قريب المنال
بعد التبعات الخطيرة التي اضطلع بحملها ، والمطامع المتعبة التي استهوته ،
واقدر طوى مستقبله السياسى فهو الآن يستطيع أن يستمتع بلذة القراءة
وجمال الأحلام !

ولكن سخرية القدر لا تريد له ذلك ، فهي ترسل إليه فى تلك
الجزيرة رجلاً عنيداً وطاغية صغير النفس وهو السير هدىسن لو . وكان
يطيب لهذا الرجل أن يظهر سلطته على نابليون فكان يقول « أنا أمر
القائد بونابرت ! إنه أسيرى »

فيرد عليه نابليون من عزلته قائلاً فى حدة وغضب « كلا ، لست أسير
أحد ، إنما أنا ضيف الأمة الإنجليزية ! »

فيجيبه الحاكم « هذا هراء ، وسأرغمه على طاعتي أو أضعه فى القيود
والسلاسل » ويؤيده مساعده قائلاً « نعم هو طريد وسجين ، والحاكم
يحق فى معاملته بهذا الأسلوب ! »

وكان هدىسن لو يفتن فى تضيق الحصار على نابليون ، وتشديد الرقابة
عليه ، وكان يجتهد فى أن يجعل نابليون شاعراً بأثر الرقابة ووقعها حتى قال
أحد أصفياء نابليون « إنهم يقتلون بوخز الإبر رجلاً عجزت عن هزيمته
جيوش أوربا »

وفى آخر مدة التقى فيها هو والحاكم نشب بينهما جدل عنيف قال فيه
نابليون لهدىسن لو « بعد سنوات قليلة سيجر عليكم النسيان أذياه ، أنت

واللورد كاسلرى واللورد باثرست ، وإن جسمى فى قبضة يدك ولكن روحتى لا تزال حرة وجريئة كما كانت وأنا سيد أوربا ، وستكون أوربا هى الحكم العدل فى المعاملة التى عوملت بها ، وسيرتد الخجل منها إلى الشعب الإنجليزى ، وإن عداوة اللورد باثرست هى التى أرسلتك هنا ، وأنت لست قائداً وإنما أنت كاتب أركان حرب ! »

وحز ذلك فى نفس هدىس لو ، ونال منه فرد على نابليون قائلاً « أنت تضحكنى يا سيدى »

نابليون : « ماذا ؟ أنا أضحكك ! »

هدىس لو : « نعم يا سيدى ! وأسفى شديد لخشونة أخلاقك وأتمنى لك يوماً سعيداً »

وبعد انصرافه التفت نابليون إلى موتهولان وقال « لقد قلت أكثر مما يجب ! وسأمتنع عن لقاء الحاكم مرة ثانية لأنه يفضبنى ويخرجنى عن طورى ! »

وحافظ على وعده ، وظل لا يراه لمدة خمس سنوات ، ولم ير هدىس لو نابليون بعد ذلك إلا وهو ميت مسجى على فراشه .

وهكذا ظلت الحرب التى ظن أنه قد نبذها وباعدها بقبوله المنفى تلاحقه وتأبى أن تتركه ، وظلت الحرب ناشبة إلى يوم مماته ، ولكنها كانت حرباً ضد الطغيان الذى حاول أن يفرضه عليه هدىس لو ، كانت حرب صفائر وسفاسف يثيرها مستبد ضئيل الشأن على رجل فقد كل شىء ، وعزيز قوم ذل ، وصار نابليون يعتقد أن هذه المعركة هى الحلقة الأخيرة من

المعاك التي دامت طوال حياته ضد الإنجليز ، وكان هُسن لو في نظره
يمثل الإنجليز .

قال لليدى مالكولم « لقد لبست تاج فرنسا الإمبراطورى وتاج
إيطاليا الحديدى وإنجلترا الآن تقدم لى تاجاً أروع وأعظم وهو « إكليل
الشوك » فالإهانة والتحقير والاستبداد تزيد فى شهرتى ، وإنى أعزو إلى
إنجلترا تألق مجدى » وكان يعزى نفسه بقوله « غيرى من الناس يخفضهم
فشلمهم ، أما أنا فقد رفعتى الفشل إلى أسمى المراتب » ولم يستطع أن يواجه
حقيقة أن حبسه كان ثمناً تقاضته الأقدار لطموحه المتناهى ومطامعه البعيدة
وللحيوات البشرية التى حطمها وأسال دماءها فى حروبه العديدة ، ولكنه
كان فى منغاه وقد أثقلته المصائب وأدته الأحزان أشجع منه فى أيام مجده
والدنيا عليه مقبلة .

كان عظيماً وجليلاً صبوراً ، كان رجلاً ، وقد صبر صبراً جليلاً على
سخرية الأقدار !